

الإمامُ ابنُ تيمية والتَّصَوُّفُ

* عبد الرَّحْمَنِ عمر اسينداري

مُقدِّمة

ينشغل المسلمون في كثير من الأحيان عن مهمتهم التي كلفهم الله بها، وهي إخراج الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وذلك بإثارة معارك جانبية بينهم لاجتهادات ذهب كل فريق منهم إليها، وبمرور الأيام تتحول هذه الاجتهادات إلى عقائد تكفر الفرق بعضها البعض بموجبها، ويتم إصدار الأحكام والفتاوى بكل بساطة ومن غير تمعن وموضوعية.

ومن تلك الصور التي حفل بها تاريخنا الإسلامي، الصراع التقليدي بين دعاة السلفية والصوفية وتكفير بعضهم البعض. وحدث في كثير من الأحيان أن عمم أحد الطرفين أو كلاهما في أحكامه على الطرف الآخر دون بيان ما لهم وما عليهم. وفي هذا البحث سيعرض الباحث موقف أحد أعلام الفكر السلفي الذي وقف - بسعة صدره وعظيم فقهه وفهمه وإدراكه لواقع الأمة - موقف الطبيب الرحيم الذي

* ماجستير في الدراسات القرآنية والحديثية من كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وطالب دكتوراه بالجامعة نفسها.

يشخص الداء ويصف الدواء، ويبدل جهده للإبقاء على نقاء وصفاء التجربة وتهذيبها مما علق بها من الشوائب، تلك التجربة التي أريد بها الصفاء من الكدر والعلو على الأهواء، والسمو في سماء العفة والطهر والزهد.

وللبحث أهمية خاصة نظراً إلى موقف الإمام ابن تيمية رحمه الله من الصوفية لا يزال غامضاً عند كثير من الناس فكثيراً ما نسمع أن ابن تيمية هو العدو اللدود للتصوف والصوفية على الإطلاق، وعليه حاولت وخلال ورقات قلائل أن أبين الموقف الصحيح للإمام ابن تيمية من الصوفية، وحري بنا نحن المسلمين اليوم أن نعيد فقه الإمام ابن تيمية رحمه الله لواقعنا، وأن نتمثله في تعاملنا مع الاجتهادات المخالفة لنا، وأن نضع حداً للازدواجية الحاكمة في سلوكنا وتصرفاتنا حيث ندعي شيئاً ونتصرف ونتعامل مع ظواهر الحياة المختلفة بشكل مناقض لما ندّعيه...

وقد تناول الباحث المحاور الآتية: نبذة مختصرة عن حياة الإمام ابن تيمية، الإمام وأصل كلمة "صوفي"، وآراء الناس حول الصوفية ورأي الإمام ابن تيمية، وأنواع السماع عند الإمام ابن تيمية، وموقف الإمام من فكرة الحلول، وموقف الإمام من فكرة وحدة الوجود، وأنواع الفناء عند الإمام.

نبذة مختصرة عن حياة الإمام ابن تيمية رحمه الله

هو الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن تيمية الحراني^١، ابن المفتي شهاب الدين عبد الحليم... ولد يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة (٦٦١هـ، ٢٢ يناير ١٢٦٣م) بحران، وقدم به والده وباخوته إلى دمشق عند استيلاء التتار على البلاد سنة سبع وستين، فسمع بها من عبد الدائم وابن أبي

١ حران: مدينة تقع في كردستان تركيا حالياً. ولمراجعة الآراء التي قبلت في أصل ابن تيمية انظر: أبو زهرة، محمد: ابن تيمية حياته وعصره وآراؤه (القاهرة: دار الفكر العربي، د. ط، ١٩٩١م) ص ١٨. البارزاني، عرفات كرم: نقد الإمام ابن تيمية للثقافات التحريفية في عصره: الغلو الصوفي نموذجاً، رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير في كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية في قسم أصول الدين ومقارنة الأديان. مطلب: التحقيق العلمي في نسبه، ص ٢٩ - ٣٢.

البسر، والمجد بن عساكر، ويحيى بن الصيرفي الفقيه، وابن أبي الخير الحداد، والقاسم الإربلي، والشيخ شمس الدين بن أبي عمر، والمسلم بن علان، وإبراهيم بن الدرجي... تأهل للفتوى والتدريس وهو دون العشرين... وله تصانيف عديدة.^٢

الإمام وأصل كلمة "صوفي"

تتبع الإمام ابن تيمية رحمه الله أصل كلمة "صوفي"، ناظراً في تطورها الدلالي فذكر ما قيل حولها من الآراء المختلفة، ثم انتهى إلى أن هذه الكلمة لم تكن شائعة في عهد الصحابة حيث يقول: "...وأما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ، فقليل:

١. إنه نسبة إلى أهل الصُّفَّة، وهو غلط لأنه لو كان كذلك لقليل صُفِّي.
٢. وقيل: نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله وهو أيضاً غلط، فإنه لو كان كذلك لقليل صُفِّي.

٢ وقد كتب بخط يده كتباً كثيرة منها: كتاب الصارم المسؤول على شاتم الرسول (طبع في حيدر آباد ١٣٢٢هـ) وكتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام (طبع في القاهرة ١٣١٨هـ، ١٣٢٣هـ) و(رسالة الفقراء). وقد جمعت عدد من رسائله معا في مجموعة عنوانها (مجموعة الرسائل الكبرى، وقد طبعت في القاهرة عام ١٣٢٣هـ). فضلاً عن كتب كثيرة منها: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (القاهرة ١٣١٠هـ)، الواسطة بين الخلق والحق (القاهرة ١٣١٨هـ)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (القاهرة ١٣٢٢هـ)، الجوامع في السياسة الإلهية والآيات النبوية (مباي ١٣٠٦هـ)، تفسير سورة النور (طبع على هامش جامع البيان في تفسير القرآن، وطبع طبعة حجرية في دهي عام ١٢٩٦هـ)، والعقيدة التدمرية (برلين رقم ١٩٩٥)، وغير ذلك كثير. ويجدر بالذكر أن مجموع فتاوى الإمام والمطبوع تحت عنوان (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية) يقع في خمسة وثلاثين مجلداً. وقد أودى مراراً، وأدخل السجن عدة مرات، ومات في سحر ليلة الاثنين والعشرين من ذي القعدة سنة (٧٢٨هـ) معتقلاً بقلعة الشام. انظر ترجمة الإمام في: الحنبلي، ابن عماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط. ت) ج ٦/٨٠، والعسقلاني، ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط. ت) ص ١٤٤-١٦٠، وابن شطي: مختصر طبقات الحنابلة، دراسة: فواز الزمري (د. م: دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م) ص ٦١-٦٦، ودائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتسناوي، إبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، مراجعة: محمد مهدي علامة (بيروت: دار المعرفة، د. ط. ت) ج ١/١٠٩-١١٦.

٣. وقيل: نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقل صفوي.

٤. وقيل: نسبة إلى صوفة بن بشر بن اودين طائفة، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك، وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف أيضاً، لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النساك...
٥. وقيل: وهو المعروف أنه نسبة إلى لبس الصوف، فإنه الصوفية ظهرت أولاً من البصرة، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وعبد الواحد من أصحاب الحسن البصري، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر الأمصار، ولهذا كان يقال: (فقه كوفي وعبادة بصرية)^٣. وكلام الإمام لا ينفي وجود هذه الكلمة قبل القرن الثالث، إذ ظهرت وبرزت في تلك الفترة بوصفها مدرسة ومؤسسة.

وما رجع الإمام ابن تيمية من أنه نسبة إلى لبس الصوف، هو الرأي الذي انعقد عليه إجماع أراء المختصين في الدراسات الصوفية من المستشرقين، أمثال: فون كيرمر، ونولدكه، وكولدزيهر، ونيكلسون، وماسينيون، وآري، وأشار إليه وصححه من القدماء: السراج، والكلاباذي، والسهروردي، وابن الجوزي... وابن خلدون وآخرون.^٤

آراء الناس حول الصوفية ورأي الإمام ابن تيمية

بعد أن تتبع الإمام ابن تيمية أصل الكلمة، ومن أين جاءت يذكر ما آل إليه أمر الصوفية والتصوف، وكيف تشعبت الصوفية وتنوعت وصارت أصنافاً وأنواعاً مختلفة، ويذكر الفروق بين كل واحد من تلك الأصناف ومدى قربها وبعدها من الدين الصحيح حيث يقسم الصوفية إلى ثلاثة أصناف: صوفية الحقائق، صوفية الأرزاق وصوفية الرسم، فيقول الإمام في هذا الصدد:

٣ ابن تيمية، أحمد عبد الحليم: مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن العاصمي الحنبلي وابنه (د. م. د. ن: ط١، ١٣٩٨هـ) مج ١١/٥-٦.

٤ انظر: فتاح، عرفان عبد الحميد: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها (بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م) ص ١٢٤.

إنه فرق بين التصوف السني^٨ الموافق للآداب الشرعية وبين المخالف له.

وينقل لنا الإمام بنفسه تنازع واختلاف الناس في موقفهم من الصوفية والتصوف حيث يقول وبنص الكلمة: "...تنازع الناس في طريقهم - الصوفية - فطائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا: إنهم مبتدعون، خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام. وطائفة غالت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم. والصواب: أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب. ومن المتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة^٩، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج...".^{١٠}

فقد تبين لنا من كلام الإمام ابن تيمية أنه عالم موضوعي في حكمه على الصوفية، وأنه يملك روح التسامح وي بذل جهده للتوفيق بين اجتهادات طوائف الأمة ويحاول توحيد صفوفها وذلك بذكر الإيجابيات والسلبيات. فلم يهاجم التصوف في جميع صورته على نحو ما يفعله البعض في وقتنا الحاضر، دون تفريق بين السني منه والملتزم بالآداب الشرعية وبين الطرقية التي ابتعدت كثيراً عن الصواب.

يقول الدكتور الطبلاوي بعد أن ينقل قول الإمام ابن تيمية "وأولياء الله هم المؤمنون المتقون، سواء سمي أحدهم فقيراً أو صوفياً أو فقيهاً أو عالماً أو تاجراً أو جندياً أو صانعاً أو حاكماً أو غير ذلك"^{١١}، يقول: "ومثل هذه العبارات لابن تيمية عن الصوفية تبين لنا

٨ ويمثل هذا التصوف السني الجنيدي (ت ٢٩٨) ومدرسته في بغداد، وأبو سليمان الداراني (ت ٢١٥) ومدرسته في الشام، وذو النون المصري (ت ٢٤٤) في مصر. ووضع هؤلاء الصوفية وأمثالهم في القرنين الثالث والرابع نظاماً كاملاً في التصوف في ناحيته النظرية والعلمية... انظر: فواد، عبدالفتاح أحمد: ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفي (الإسكندرية: دار الدعوة، ط ٢، ١٩٨٧م) ص ٢٣٥.

٩ سنتحدث عنهم تحت عنوان (الاتحاد، الحلول، وحدة الوجود).

١٠ ابن تيمية: مجموع الفتاوى، مج ٢٢/١١، ص ١٧-١٨.

١١ المرجع نفسه. مج ٢٢/١١.

أنواع السماع عند الإمام

يصنف الإمام ابن تيمية رحمه الله السماع إلى صنفين وبين مدى صواب كل صنف، الصنف الأول وسماه السماع الإيماني القرآني النبوي الديني الشرعي، الذي هو سماع النبيين وسماع العالمين وسماع العارفين، وسماع المؤمنين، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ {مريم: ٥٨}، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ {الأنفال: ٢}.

ويضيف الإمام بقوله: وكما مدح المقلين على هذا السماع فقد ذم المعرضين عنه في قوله: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ {لقمان: ٦}، وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنَّا مُسْتَكْبِرًا كَانُوا لَمْ يَسْمَعُهَا كَانُوا فِي أذُنِهِمْ وَقَرَأُوا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ {لقمان: ٧}. وهذا كان سماع سلف الأمة وأكابر مشائخها وأئمتها كالصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشائخ كبارهم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، وأمثال هؤلاء، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري: يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يسمعون ويكونون...^{١٥}.

وبعد أن يقرر أن هذا السماع هو الموافق لما كان عليه سلف الأمة وأئمتها يبين ما لهذا السماع من فوائد وأثار حيث يقول بعد أن يستطرد في ذكر الآيات القرآنية والآثار: "ولهذا السماع من المواجيد العظيمة، والأذواق الكريمة، ومزيد المعارف والأحوال الجسمية ما لا يتسع له خطاب، ولا يحويه كتاب...".

ثم يبين الإمام ما كان لهذا السماع من أثر في الصحابة وكيف تطور في عهد التابعين حيث يقول: "وهذا سماع له آثار إيجابية من المعارف القدسية، والأحوال الزكية يطول شرحها ووصفها، وله في الجسد آثار محمودة من: خشوع القلب، ودموع العين، واقشعرار الجلد، وقد ذكر الله هذه الثلاثة في القرآن، وكانت موجودة في صحابة رسول الله ﷺ الذين أثني الله عليهم، ووجد بعدهم في التابعين آثار ثلاثة:

انتقد الإمام ابن تيمية الرقص الذي كان يجري في بعض حلقات الذكر، مستنداً إلى قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ {الفرقان: ١٩}، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ {الفرقان: ٦٣}، ويفسرها بالسكينة والوقار فهذه الحركات لم يأمر بها الله ورسوله ﷺ، وإنما أمر بالركوع والسجود". ٢٠

موقف الإمام من فكرة الحلول

بعد أن ذكرنا موقف الإمام ابن تيمية من التصوف، وقلنا أنه قسم التصوف إلى تصوف سني - ملتزم بالأدب الشرعية - وتصوف خرج عن المسار الصحيح لما ذهب إليه أصحابه من الأقوال والآراء المخالفة لما عرف من الدين بالضرورة. نذكر هنا موقف الإمام من فكرة الحلول ووحدية الوجود والاتحاد، وسنجد أن الإمام وقف لهذه الأفكار الشاذة بالمرصاد على الرغم من أن بعض الذين هاجمهم كانوا متقدمين عليه ولم يعاصرهم، أمثال الحلاج وابن عربي، إلا أنه لما كان لآرائهم وأفكارهم من تأثير واضح على الناس نجد أن الإمام ابن تيمية يناقش أفكارهم مناقشة علمية دقيقة، ويبين النقص والخطأ فيما ذهبوا إليه بأدلة عقلية ونقلية معاً.

ويمكن أن نلخص هدف الإمام ابن تيمية فيما دار بينه وبين المتصوفة من مناقشات وما كتب حولهم من أبحاث بأنه: "إبراز الجوهر الأصلي للتصوف بوصفه مدرسة تربوية هدفها الأساسي هو تهذيب النفس وتطهيرها من أخلاقها المنحرفة ولذلك عارض كل انحراف طراً على التصوف فيما يخص هذا الهدف، وكل ما يخالف القرآن والسنة في هذا المجال.

وانطلاقاً من هذه القاعدة أظهر ابن تيمية احتراماً كبيراً لرواد الزهد وشيوخ التصوف الذين التزموا بالقرآن والسنة من أمثال: الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، والسري السقطي، والجنيد وحمام الدباس والشيخ عبد القادر الكيلاني،

آخر للحلاج وهو:

بيني وبينك إني يزاحمني فارفع بحقك إني من البين

يقول: "فإن هذا الكلام يفسر بمعان ثلاثة: يقوله الملحد، ويقول الزنديق ويقول الصديق. فالأول: مراده به طلب رفع إنيته حتى يقال إن وجوده هو وجود الحق وإنيته هي إنية الحق، فلا يقال إنه غير الله ولا سواه. ولهذا قال سلف هؤلاء الملاحدة: إن الحلاج نصف رجل، وذلك إنه لم ترفع له الإنية بالمعنى، فرفعت له صورة، يقولون: أنه لما لم ترفع إنيته في الثبوت في حقيقة شهوده رفعت صورة فقتل، وهذا القول مع ما فيه من الكفر والإلحاد، فهو متناقض ينقض بعضه بعضاً فإن قوله (بيني وبينك إني يزاحمني)، خطاب لغيره، وإثبات إنية بينه وبين ربه. وهذا إثبات أمور ثلاثة ولذلك يقول: (فارفع بحقك إني من البين) طلب من غيره أن يرفع إنيته، وهذا إثبات لأمر ثلاثة. وهذا المعنى الباطل، هو الفناء، هو الفناء الفاسد، وهو الفناء عن وجود السوى، فإن هذا فيه طلب رفع الإنية، وهو طلب الفناء".^{٢٤}

فكرة وحدة الوجود

يبدأ الإمام ابن تيمية بشرح أو بذكر عقائد القائلين بفكرة وحدة الوجود واحدة بعد الأخرى، وبعد ذلك يبدأ بالرد عليها وعلي القائلين بها، أمثال ابن عربي، وابن سبعين، وابن الفارض وغيرهم.

وقبل أن أذكر كلام الإمام أود أن أشير إلى أن هناك اختلافاً جوهرياً بين الحلول ووحدة الوجود، أو بين وجهة نظر الحلاج وابن عربي حول مسألة الواحد والكثرة على الرغم من تقاربهما ألا وهي:^{٢٥}

"...الحلاج ينظر إلى اللاهوت والناسوت (أو الطول والعرض) أو الله والعالم بوصفهما شيئين مختلفين ذاتاً وطبيعةً، ويعتقد أن اللاهوت يمكنه أن يحل في الناسوت إذا بلغ الناسوت درجة خاصة من الصفاء الروحي نرى ابن العربي يقول: "إن اللاهوت والناسوت أمران اعتباريان يقرر العقل وجودهما لعجزه عن إدراك وحدتهما.

٢٤ المرجع السابق، مج ٢/٣١٢-٣١٣.

٢٥ غفني، أبو العلا: من أين استقى محي الدين ابن عربي فلسفته الصوفية (مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية،

مج ١، ج ١، مايو، ١٩٢٢م) ص ٢٩.

وحصوله شيء واحد، وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنة والإجماع في القلم.
قال الله تعالى لذكرى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ {مریم: ٩}،
فأخبر أنه لم يك شيئاً، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ {مریم: ٦٧}، وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ
الْخَالِقُونَ﴾ {الطور: ٣٥}، فأنكر عليهم اعتقادهم أن يكون خلقوا من غير
شيء خلقهم أو خلقوا أنفسهم.

ثم يقول رداً على استدلالهم بالآية ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ﴾ {النحل: ٤٠}، يقول: "إن الذي عليه أهل السنة والجماعة وعامة العقلاء
إن الماهيات مجعولة، وإن ماهية كل شيء وجوده، وإنه ليس وجود الشيء قدراً زائداً
على ماهيته، بل ليس في الخارج إلا الشيء الذي هو الشيء وهو عينه ونفسه وماهيته
وحقيقته، وليس وجوده وثبوته في الخارج زائداً على ذلك". ثم يبدأ بقولهم الوحدة
بين الحق والخلق، أو بين المخلوق والخالق بوجوده عقلية كثيرة، ووجوه شرعية، ولنختار
واحداً من الأدلة العقلية، التي ساقها، وهو أولها.

"لقد قرر ابن تيمية، أن هؤلاء يرون أن هذه الحقائق الكونية كانت معدومة في
نفسها، ولكنها أشياء في عينها، وفي علم الله سبحانه، وفي تحليله المطلق، ووجوده
المطلق، وكانت متحدة بنفسه ووحدته الذاتية، ثم كانت بعد ذلك على هذه
الأشكال. فينظر ابن تيمية كيف تحولت من حالها الأولى، أخلقها الله وبرأها وجعلها
موجودة، أم لم تزل معدومة؟ ترتب على ذلك ألا يكون شيء من الكونيات موجوداً.
وهذه مكابرة للحس والعقل والشرع، ولا يقوله عاقل، ولم يقله عاقل، وإن كانت
موجودة بعد إن كانت معدومة على النحو الذي يقررونه في معنى العدم، يترتب على
ذلك ألا تكون وموجدتها شيئاً واحداً، لأنه لم يكن معدوماً ووجد، ولأنه هو المؤثر
فيها بهذا التغيير، ويجب أن يكون المؤثر والمتأثر شيئين متغايرين". ٢٧

ثم يسرد الإمام بعض آراءهم حيث يذكر منها: "...يقولون - أي أصحاب وحدة
الوجود - إن الوجود واحد، وإن وجود المخلوق هو وجود الخالق... ويقولون: إن
وجود الأصنام هو وجود الله، وإن عباد الأصنام ما عبدوا شيئاً إلا الله... وأن الحق

أكمل الأمة في معرفة دينه وإتباعه، وأبو بكر الصديق أكمل معرفة بما جاء به عملاً به فهو أفضل أولياء الله...^{٣١}. ويقول الإمام في موضع آخر مبيناً كفر ما ذهب إليه هؤلاء حيث يقول: "...وهذه الفتوى لا تحتل بسط كلام هؤلاء، وبيان كفرهم، فإنهم من جنس القرامطة الباطنية والإسماعيلية الذين كانوا أكفر من اليهود والنصارى وأن قولهم يتضمن الكفر، بجميع الكتب والرسل، كما قال الشيخ إبراهيم الجعيري، لما اجتمع بابن عربي - صاحب الفصوص - فقال: رأيته شيخاً نحساً، يكذب بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي أرسله الله".^{٣٢}

شهادة الإمام ابن تيمية لابن عربي

يقول محمد حسني الزين في كتابه (منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري): "إنني لم أجد في مؤلفات ابن تيمية رجلاً سخط عليه شيخ الإسلام، وكفره بمثل القسوة التي كفر بها ابن عربي وهو عنده كافر ملحد زنديق".^{٣٣}

إلا أننا نقول: على الرغم مما كان عليه ابن تيمية من الغلظة والقسوة على ابن عربي فإنه لم يخرج عن الموضوعية حيث لو راجعنا فتاوى الإمام نجده وفي مناسبات مختلفة يذكر ما لابن عربي وما عليه ويصفه بأنه أحسن من غيره وأقرب للإسلام منهم - القائلين بوحدة الوجود - أمثال: ابن سبعين والتلمساني وغيرهم فمثلاً نجده يقول: "...وفي كتبه - مثل الفتوحات المكية وأمثالها - من الأكاذيب ما لا يخفى على لبيب هذا وهو أقرب إلى لإسلام من ابن سبعين، ومن القونوي، والتلمساني، وأمثاله من أتباعه، فإذا كان الأقرب بهذا الكفر الذي هو أعظم من كفر من اليهود والنصارى، فكيف بالذين هم أبعد عن الإسلام؟ ولم أصف عشر ما يذكرونه من الكفر".^{٣٤}

ويقول في موضع آخر: "وهي مع كونها كفراً - قوله بوحدة الوجود - فهو أقربهم إلى الإسلام لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثير، ولأنه لا يثبت على الاتحاد

٣١ ابن تيمية، أحمد عبد الحليم: الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تصحيح وتعليق: محمود عبد الوهاب (د. م: دار الفكر، د. ط. ت) ص ١٠٢-١٠٣.

٣٢ ابن تيمية: مجموع الفتاوى، مج ٢/١٣٠.

٣٣ الزين، محمد حسين: منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري (بيروت: المكتب الإسلامي، د. ط، ١٩٧٩م) ص ٣١٢.

٣٤ ابن تيمية: مجموع الفتاوى، مج ٢/١٣١.

يعرض مثل هذا للنبي ﷺ والسابقين الأولين. ومن جعل هذا نهاية السالكين فقد ضل ضلالاً مبيناً وكذلك من جعله من لوازم طريق الله فهو مخطئ، بل هو من عوارض طريق الله التي تعرض لبعض الناس دون بعض، ليس هو من اللوازم التي تحصل لكل سالك. ٣٧

ويحصل هذا لبعض السالكين لشدة انجذاب القلوب إلى ذكر الله وعبادته بحيث لا يخطر بالقلوب غير الله سبحانه وكما أشار الإمام فإن في هذا النوع من الفناء علامة نقص وذلك لأنه يؤدي إلى غياب العقل والتمييز وعدم الشعور بالنفس لذا نجده يفضل من حصل له الإيمان ولم يغيب عنه عقله حيث يقول: "ولكن من لم يزل عقله من أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه فهو أفضل منهم وهذه حال الصحابة رضي الله عنهم وهو حال نبينا ﷺ، فإنه أسري به إلى السماء وراه الله ما أراه وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله، فحاله أفضل من حال موسى عليه السلام الذي خرَّ صعقاً لما تجلّى ربه للجبل، وحال موسى حال جليلة عليه فاضلة ولكن حال محمد ﷺ أكمل وأعلى وأفضل". ٣٨

ولكنه مع ذلك لا ينكر على من حصل له هذه عن سبب غير محذور كقوة المحبة والذكر ويعذرهم فيما يصدر عنهم في تلك الحالة كما حصل لأبي يزيد البسطامي حيث يقول في أعمال القلوب أو المقاومات والأحوال: "وقد يقع لبعض المصطلمين من أهل الفناء في المحبة أن يغيب بمحبوبه عن نفسه، ويغيب بمذكوره عن ذكره، ومعرفة عن معرفته، وبموجوده عن وجوده، حتى لا يشهد إلا بمحبوبه فيظن في زوال تميزه ونقص عقله وسكره إنه هو محبوبه كما قيل: إن محبوباً وقع في اليم فألقى الحب نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت فأنت ما الذي أوقعك؟ فقال غبت بك عني، فظننت أنك أني فلا ريب أن هذا خطأ وضلال.

ولكن إذا كان هذا لقوة المحبة والذكر من غير أن يحصل عن سبب محذور زال

لله، وإن ما سوى الله صورة للحق، ويعتقد هذا في حال الصحو، وهو كامل التفكير، وأما الفناء عن شهود سوى فإن صاحبه في حال غيبة فني فيها عن شهود ما سوى الله وفني عن نفسه. ٤٢

وكذلك في الأولى - وحدة الشهود - يفني الصوفي في حبه لله عن نفسه وعن كل ما سوى الله، فلا يشاهد في الوجود غيره، وفي الثانية، يعلن الصوفي الوحدة بين الحق والخلق. ٤٣

خاتمة

تبين لنا أن الإمام ابن تيمية قد التزم بالموضوعية والوسطية عند إصدار حكمه على الصوفية وعلى التصوف فلم يعمم القول عند حكمه على الصوفية بأنهم منحرفون أو ضالون وما إلى ذلك من الأحكام، وإنما قسم الصوفية أقساماً وصنفهم أصنافاً ثم حكم على كل صنف بما يلائم حاله. حيث نراه يقر بالتصوف السني الملتزم بأداب الدين والعقل ويستشهد بآراء شيوخ هذا التصوف السني أمثال الجنيد وغيره.

ثم وجدنا كيف أن الإمام قد وقف موقفاً متشدداً من مظاهر الغلو التي ظهرت عند بعض المستصوفة من القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود وما إلى ذلك.. ومع ذلك فإنه ناقش أقوالهم راداً على أدلتهم بأسلوب علمي ولم يحكم على الغلاة بالكفر والزندقة جزافاً... ثم نجد الموضوعية مرة أخرى في موقفه من ابن عربي وشهادته له بأنه أقرب إلى الإسلام من غيره أمثال ابن سبعين، ومن القونوي، والتلمساني وغيرهم على الرغم من أنه قد صدر منه ما يؤدي إلى الكفر...

٤٢ شرف الدين، عبد العظيم بن عبد السلام: ابن قيم الجوزية، عصره ومنهجه وآراءه في الفقه والعقائد والتصوف (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ط٢، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م) ص ٤٦٩.

٤٣ درنيقة والمصري: ابن تيمية والصوفية، ص ١٥٢.